الأدب والفن في أسبوع

ساعة مع الأستاذ وديع البستاني :

كانت ساعة طيبة حافلة قضيتها مع الأستاذ الشاعر وديع البستاني ، وكان الأستاذ قد طار منذ قريب إلى لندن في مهمة سياسية عربية ، فاغتنمها فرصة للبحث عن أصول الأدب الهندي القديم في مكتبة المتحف البريطاني ومراجعة الملاحم الهندية العريقة التي عكف على نقلها إلى اللغة العربية سنوات طويلة ، وقد أشرنا إلى خبر هذا في عددين سابقين من « الرسالة » وبعد أن أنجز الأستاذ مهمته وأخذ طريق العودة إلى وطنه (حيفا) ، آثر النزول في مصر لقضاء فترة من الوقت ، وقد زرته حيث ينزل بفندق الكونتنتال في أمسية من أمسيات الأسبوع الماضي فتلقاني بالسرور وجلس يُفيض علي من زاخر علمه ويحدثني عن آثار جهده في نقل أصول الأدب الهندي وما وقف عليه في ذلك من التحقيقات ، فكان حديثاً عامراً قيدت منه بعض الشوارد المفيدة والشواهد النافعة ...

الحمى .. الحرام :

... سألت الأستاذ عن هذه الملاحم الهندية التي عني بنقلها وعكف على ترجمتها ، فوضع بين يدي حزمة ضخمة من المجلدات والطوامير وقال هذه هي الآثار المقدسة . وإذا قلت المقدسة فإني أعني أنها ظلت طوال العصر القديم كالحمى الحرام لا يفتح بابه لكل طارق ولا يباح عبوره لكل سالك ، إذ كان البراهمة يحيطون كتب الحكمة القديمة المعروفة باسم « الفيدا » وملحمتي الراماياناوالمهابهاراتا بسياج من التقديس ، فكان البراهمة لا يبيحون الاطلاع عليها إلا لأبناء الطبقات الممتازة ، أما العامة من العمال وغيرهم فكانوا يحللون قتل الشخص منهم إذا اختلط نَفَسه ولو مصادفة بنَفس من يتلو آية من كتب الحكمة أو يردد بيتاً من الراماياناوالمهابهاراتا ، ولما قام حاكم الهند في عام ١٧٨٤ بترجمة نشيد السماء ونشيد العلم (كريشنا) إلى اللغة الإنجليزية نثراً وضع لذلك النشيد مقدمة افتخر فيها بأنه كان أول من أتاح له البراهمة ترجمة هذا النشيد . والحق أن هذا النشيد — وعدد أبياته في اللغة الهندية القديمة نحو ستمائة بيت — هو أول ما نقل من الأدب الهندي القديم إلى لغة أخرى ، ومن بعد ذلك توافرت جهود الباحثين في نقل الملاحم الهندية ، فقد نقلت الراماياناكاملة إلى اللغة الفرنسية كما ترجمت إلى الإيطالية بقلم أديب إيطالي تحت رعاية أحد الملوك الإيطاليين . ولها ترجمات عديدة في الألمانية والإنجليزية واللغات الأوروبية الأخرى ، وحين أقول الراماياناإني أقصد راماياناالفاليكي التي نظمت بالسنسكريتية وذلك تمييزاً لها عن ملحمة أخرى لنفس القصة وضعت منذ ثلاثة قرون بلغة أخرى من لغات الهند ، وقد بلغني أن الأديب المسلم العظيم الدكتور عبد الحق رئيس جمعية ترقي الأدب الأوردي آخذ في ترجمة راماياناالفاليكي إلى اللغة الأوردية وهي من أشهر اللغات الحية في الهند اليوم . وأحب أن أقول لك إني اطلعت على هذه الراماياناالحديثة مترجمة إلى الإنجليزية ، فوجدتها قد نقلت في لغة رديئة وتروي قصصاً تطنب في ذكر راما البطل المعبود ، وقد علمت أخيراً أن هذه الراماياناأخرجت في السينما وتكاليف إخراجها نحو ٢٧ ألف جنيه ولكنها في مدى سنة حصلت للشركة التي تولت إخراجها ٢٤٠ ألف جنيه ربحاً .

فتح جديد في علم الفيلولوجي :

قال الأستاذ : ولقد أدى نقل الملاحم الهندية القديمة إلى اللغات الأوربية إلى فتح باب جديد للبحث في فقه اللغة « الفيلولوجيا » وإن من ينظر الآن في قاموس كامل للغة الانجليزية يدهشه ما يرى من كثرة المفردات الانجليزية التي ترجع إلى أصل سنسكريتي ، وسيكون لنقل هذه الآثار إلى اللغة العربية نفس الأثر ؛ فقد ثبت لي ثبوت اليقين أن هناك تشابهاً كثيراً بين المفردات في اللغة العربية واللغة السنسكريتية ، فكلمة « الفيدا » مثلا — أي كتب الحكمة — لا تخلو من صلة بكلمة الفائدة وكلتي دين وديانة ، وأسمى « البستاني » يرجع إلى أصل سنسكريتي فقد وردت كلمة « بستان » في شعر جرير الخطفي ، وهي في

الأصل مؤلفة من كلمة « بو » و « ستان » ، وأصل « بو » فى اللغة البهلوية — أى الفارسية القديمة — بول ، ومنها الكلمة العربية « فول » وهو البقل المعروف الذى إذا زرع منه حقل كان أبهى ما يكون منظراً وأطيب ما يكون رائحة زهره الجميل. ومن كلمة « بول » أخذ إسم الزهرة فى الفرنسية والانجليزية ، والمعنى الجامع فى هذا كله : الرائحة الطيبة . وأما كلمة « ستان » فهى أصل لمئات الكلمات فى اللغات اللاتينية وفى اللغة العربية . فإن معناها المكان أو الوقوف ، ومنها هندستان أى مكان الهند وتركستان أى مكان الترك . فكلمة « بستان » معناها مكان الروائح .

أقدم الملاحم وأطولها :

وسألت الأستاذ عما حققه من تاريخ نظم الرامايانا والمهاباراتا فقال : إن الرامايانا أقدم من المهاباراتا بنحو قرن واحد وعدد أبياتها فى الأصل السنسكريتى ٢٤ ألف بيت فهى أقدم الملاحم العالية قاطبة . أما المهاباراتا فعدد أبياتها ١٢٤ ألف بيت فهى أطول الملاحم العالية قاطبة ، ولكن عشرات الآلاف من أبيات المهاباراتا قد نظمت فى مباحث وموضوعات عامة كأحكام الزواج وآداب الضيافة وتقديم القربان وفلسفة خلاص النفس مما لم يهتم أحد من المترجمين بنقله إلى اللغات الأوربية ؛ إلا أن الحكومة الهندية قد أحدثت ترجمة كاملة نثرية باللغة الانجليزية لهذه الملحمة وطبعت فى كلكتا منذ أكثر من مائة سنة .

وآراء الباحثين تختلف فى تعيين التاريخ للأدب الهندى القديم ، فالمهندون الذين وقفوا حياتهم على البحث فى أصول الأدب السنسكريتى يذهبون إلى أن تاريخ هذا الأدب فى وجوده يتراوح بين ٢٤٠٠ سنة و ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، والبراهمة والمحققون من أبناء الهند يعتقدون أن تاريخ وجوده أقدم من ذلك بكثير . ومهما يكن من شىء فإنى على يقين بأن الرامايانا والمهاباراتا قد تقدمتا فى الوجود على الإلياذة ، وإذا كان هناك مظاهر كثيرة من التشابه بين هاتين الملحمتين والإلياذة فإن التاريخ لم يذكر أن فاتحاً فتح الهند قبل الإسكندر المقدونى الذى كان يحمل الإلياذة ويسرّح كل أسير يروى بيتاً منها . ومن المعلوم على اليقين أن عهد الإسكندر أحدث من عهد الإلياذة نفسها . وفى أثناء سفرتى الثالثة إلى لندن ، وهى هذه السفرة عنيت بالاطلاع على ما جدّ من الكتب فى مكتبة المتحف البريطانى لاستيفاء البحث فى هذه الناحية ، وقد سرنى أننى لم أجد شيئاً هناك ينقض ما كنت قد وقفت عليه فى هذا الشأن .

فى ضيافة طاغور :

وحدثنا الأستاذ عن شغفه بالأدب الهندى القديم والروح الهندية الفياضة بالتأمل العميق وهو لما يزل فى مطلع شبابه فقال : لقد أخذت وأنا فى طراوة العمر بذلك النغم الذى تبينته فى الأدب الهندى والفلسفة الهندية وحملتنى نفسى فى هذا السبيل على أن أعيش عيشة أهل الهند وأن أنسك نسكهم فسافرت إلى هناك وقضيت شهرين فى ضيافة طاغور ، وأخذت أروض نفسى على حياة الهنود الناسكين ، وكنت قد أحسست فى حنايا قلبى بكل المشاعر الإنسانية كشعور الحب وشعور العاشق وشعور الصديق ولكنى لم أكن قد أحسست بعد شعور الوالد ، ومن ثم رغبت فى الزواج وحملنى الإحساس بشعور الأبوة أن أكون أبا ، وتزوجت وأقلعت عن حياة النسك ولكنى بقيت مندمجاً فى تلك الروح الهندية العميقة مأخوذاً بصفائها ، ومن ثم كان شغفى بتلك الآداب الهندية القديمة ونقلها إلى اللغة العربية إذ أنها لم تنقل إلى اللغة العربية بل لا تزال مجهولة لأبناء العروبة على حين قد عرفها أبناء اللغات الأخرى .

هذه الملاحم :

قال الأستاذ وقد نقلت الرامايانا أعنى رامايانا فالميكى والمهاباراتا . والنالا ودامينتى وهى إحدى القصص الخمس المروية فى المهاباراتا وقد ثبت أن ثلاثة من أبواب كليلة ودمنة وردت قصصها فى المهاباراتا ووقع تعريبى النالا ودامينتى فى ١٢٥٤ بيتاً ، كما نقلت مسرحية الشاكونتالا وقد وضع هذه المسرحية شاعر عاش بين القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد اسمه فاليداس ، كما عنيت بنقل الأساطير الهندية القديمة المعروفة بكتب الحكمة وهى ترجع فى تاريخها إلى ما قبل وجود الملاحم .. هذا وقد أسمعنى الأستاذ جملة فصول من هذه الملاحم التى نقلها شعراً فأعجبنى أنه استطاع أن يكون شاعراً يؤثر الديباجة الرائقة والأسلوب الشعرى الموسيقى حتى لقد فاق فى ذلك البستانى الكبير فى ترجمة الإلياذة . وقد استرعى نظرى أنه نقل من الرامايانا فصلا

عن « وصف الشتاء فى بنشقانى » فآثر نقله بنغمه الهندى على بحر غير بحور الشعر المعروفة فى العربية ، وقد أخبرنى أنه آثر ذلك ليعطى صورة صادقة من النغم الهندى والروح الهندية .

فى الدين الهندي :

وسألته عما يقال عن المعبود (كريشنا) فى الأدب الهندى وهل هو يقابل (ابولو) فى أدب اليونان . فقال لى أن كريشنا لا يقابل أحداً من آلهة اليونان أو اللاتين ، وإنما هو التجسد الثامن عند الهنود ، ويعتبر بوذا التجسد التاسع ؛ أما التجسد العاشر فلم يظهر بعد وعلامة ظهوره عندهم أن تقوم الملوك ملكا على ملك وأن تطلب المرأة مساواتها بالرجل . ويعتبر راما التجسد السابع كما اعتبر المسيح تجسداً إذ نسب إلى الله أباً وهذه فكرة هندية قديمة . فإن كلا من كريشنا وراما نطفة الإله قشنوا الأقنوم الثانى فى الثالوث الهندى المؤلف من براهما وقشنوا وشيوا وهو أقنوم موحد (ثرمورتى) ، فالدين الهندى دين توحيد لا دين تعديد .

لغة القرآن :

وانتقل الأستاذ يحدثنى عن ذكرياته فى الحياة ونشأته فى الأدب فقال : لقد نشأت فى رعاية ابن العم الشيخ سليمان البستانى معرب الإلياذة وكنت أقول الشعر وكان يسددنى فى طريقه ، فلما علم أنى بلغت فيه مبلغاً نادانى فى يوم وقال لى يا وديع ، لقد سرت فى طريق الشعر وبلغت فيه مبلغاً ، ولكن هل تحسن القراءة ؟ ثم ناولنى كتاباً وقال اقرأ ، فقرأت ، ثم قال لا بأس ، ولكن أنصحك يا وديع أن تحفظ كثيراً من القرآن الكريم ، وأن تقف على أحكام تجويده وتلاوته وتروض لسانك عليه فإن ذلك مما يقوم قراءتك ، وإن ذلك هو الأساس السليم لتقويم اللسان فى القراءة . وإنى قد أخذت نفسى بذلك فى صدر شبابى وهكذا أبناء الأسرة البستانية الذين أسكوا أنفسهم بالعناية بالأدب ، فأخذت بنصيحته ونفذتها

وبعد ألا ترى أيها القارئ أنها كانت ساعة حافلة بالأدب والعلم ؟ أجل وأنى لأسدى صادق الشكر عليها إلى الأستاذ الجليل .

الجمع اللغوى يؤبنه عضوين من أعضائه :

أقام مجمع فؤاد الأول للغة العربية هذا الأسبوع حفلة تأبين فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية لفقيدى العلم والإنسانية المغفور لهما الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور على ابراهيم باشا ، وبعد أن افتتح معالى أحمد لطفى السيد باشا رئيس المجمع الحفل بكلمة رصينة فى تقدير مناقب الفقيدين العظيمين وتصوير الخسارة بفقدهما تقدم الدكتور على توفيق شوشة باشا فألقى كلمة خاصة بتأبين المغفور له على إبراهيم باشا استهلها بالحديث عن حياة الفقيد طالباً ثم دكتوراً صغيراً اختار مدنية أسيوط ميداناً لنشاطه ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى القاهرة إذ ذاع صيته وطبقت شهرته فافتتح مستشفى يحمل إسمه فى شارع الصنافيرى فلم يكن هذا المستشفى مجرد عيادة بل كان كذلك مجال خير عميم للتخفيف من ويلات الإنسانية وميدان نشاط ثقافى رائع إذ صدرت منه أول مجلة طبية وتم فيه إنشاء الجمعية الطبية المصرية ، على أن الفقيد ظل طول حياته رجل الإنسانية وخادمها ، فكان دائماً المجاهد فى مكافحة الأمراض المتوطنة والأمراض الوافدة ، وكان دائماً يعمل فى حرص بالغ على رفع صوت مصر فى المؤتمرات الدولية ، ثم كان إلى جانب عبقريته الطبية صاحب ذوق فنى وطبيعة جمال النفس وصفاء الذهن وقد تجلى هذا فى شغفه رحمه الله بالتحف النفيسة والآثار الغالية الجميلة

وألقى الأستاذ أحمد أمين بك كلمة التأبين المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق فقال : رحم الله صديقنا وزميلنا مصطفى فقد كان ممتازاً فى خلقه ؛ ممتازاً فى نفسه ؛ ممتازاً فى علمه ، أما امتيازه فى خلقه فقد نأى به عما يتخلق به أمثاله من أبناء الحسب والنسب والغنى والجاه فما بطر ولا تعجرف ، وأما امتيازه فى نفسه فأنه يتجلى فى جمعه بين القديم والجديد ، وكذلك امتيازه فى علمه فإنه يظهر فى أسلوبه الذى كان يؤثره واختيار اللفظ الأنيق فى تدبيج عبارته ؛ ثم تحدث عما كان يتحلى به من كرم النفس وسماحة اليد وبذل العون للمحتاج ، وانتقل بعد ذلك فتحدث عن حياة الفقيد ونشأته الأولى فى كنف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ثم تنقله بعد ذلك فى مدارج الحياة حتى انتهى إلى مشيخة الأزهر ثم قال إنه كان فى هذه المرحلة الأخيرة من حياته يرمى لما يحيط به من الصعاب فى القصد إلى إصلاح الأزهر ، وكان يطوى نفسه على كثير من الخير فى هذا السبيل لولا أن عاجلته المنية ...

رحم الله الفقيدين الجليلين اللذين خسرتهما مصر ، وخسرهما العلم ، وفقدتهما الإنسانية ...

« الحافظ »